

الدهر لا ينجي من الموت

كان بنو عبس خرجوا من بني ذبيان فانطلقوا إلى بني سعد بن زيد مناة بن تميم فحالفوهم وأقاموا عندهم، وكانت لهم خيل عتاق وإبل كرام، فرغبت بنو سعد فيها فهموا أن يغدروا بهم ففطن لذلك قيس بن زهير وظنه ظناً، وكان رجلاً مفكر الظن فأثابه به خبر. فأنذرهم حتى إذا كان الليل سرج في الشجر نيراناً، وعلق عليها الأداوى وفيها الماء يسمع خريرها، فأمر الناس فاحتملوا، فانسلوا من تحت ليلتهم، وباتت بنو سعد وهم يسمعون صوتاً ويرون ناراً. فلما أصبحوا نظروا فإذا هم قد ساروا، فاتبعوهم على الخيل فأدركوهم بالفروق، وهو واد بين اليمامة والبحرين. فقاتلوهم حتى انهزمت بنو سعد. وكان قتالهم يوماً مطرداً إلى الليل. وقتل عنترة ذلك اليوم معاوية بن نزال جد الأحنف ثم رجعوا إلى بني ذبيان فاصطلحوا. فقال عنترة يذكر الفروق:

[الطويل]

أَلَا قَاتَلَ اللَّهَ الطُّلُولَ الْبَوَالِيَا
وَقَاتَلَ ذُكْرَاكَ السِّنِينَ الْخَوَالِيَا
وَقَوْلَكَ لِلشَّيْءِ الَّذِي لَا تَنَالُهُ
إِذَا مَا حَلَا فِي الْعَيْنِ: يَا لَيْتَ ذَا لِيَا
وَنَحْنُ مَنَعْنَا بِالْفُرُوقِ نِسَاءَنَا
نُطَرِّفُ عَنْهَا مُشْعَلَاتٍ غَوَاشِيَا^(١)

(١) نطرف: نمنع. المشعلات: المتناثرة. الغواشي: المحيطة بالقوم. يفخر الشاعر أنهم استطاعوا حماية نسائهم من الوقوع في الأسر وردوا المغيرين على أعقابهم، بعدما خلصوا دون هزيمة في الفروق.

حَلَفْنَا لَهُمْ وَالْخَيْلُ تَرْدِي بِنَا مَعَا
 نُزَايِلُهُمْ حَتَّى يَهْرُوا الْعَوَالِيَا ^(١)
 عَوَالِي زُرْقاً مِنْ رِمَاحِ رُدَيْيَّةٍ
 هَرِيرِ الْكِلَابِ يَتَّقِينَ الْأَفَاعِيَا ^(٢)
 تَفَادَيْتُمْ أَسْتَاهَ نَيْبٍ تَجَمَّعَتْ
 عَلَى رِمَّةٍ مِنَ الْعِظَامِ تَفَادِيَا ^(٣)
 أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ الْأَسِنَّةَ أَحْرَزَتْ
 بَقِيَّتَنَا، لَوْ أَنَّ لِلدَّهْرِ بَاقِيَا ^(٤)؟

(١) ورد البيت في: لسان العرب ٥: ٢٦٠ مادة (هرر) «... وهَرَّ فلان الكأس والحربَ هَريراً أي كرهها؛ قال عنترة:

... نزايلكم حتى تهزوا...، الرديان: ضرب من السير، وهو أن يَرْجُمَ الفرس الأرض رجماً بحوافره من شدة العدو. وقوله: نزايلكم جواب القسم أي لا نزايلكم فحذف لا حدّ قولهم تالّله لا أبرح قاعداً أي لا أبرح، ونزايلكم: نبارحكم، يقال: ما زايلته أي ما بارحته، والعوالي: جمع عالية الرمح، وهي ما دون السنان بقدر ذراع. وفلان هَرَّه الناس إذا كرهوا ناحيته».

(٢) الزرق: المصقولة الصافية. ردينية: اسم امرأة تنسب إليها الرماح. لا يزال الشاعر يصف تلك الرماح، إنها زرقاء صافية تنسب إلى ردينية؛ إن القوم يكرهون الصدام والقتال لذا يَفَرُّون كالكلاب خوفاً من سَمِّ الأفاعي القاتلة؛ فبنو عبس أفاع قاتلة.

(٣) تفاديتم: فديتكم بأنفسكم. أستاها: أدبار. النيب من النياق: المستات. الرمة: العظام البالية. ينعي الشاعر على هؤلاء القوم أنهم ضحّوا بأنفسهم في سبيل الحفاظ على ثرواتهم، وتلك ظاهرة خسة، فالمرء يضحي بالمال لأنه لم يستطع تعويضه، أما الإنسان فهو أئمن شيء في الوجود، تجمعت تلك النياق المستات على شيء لا قيمة له.

(٤) أحرزت: حمت يُخاطب الشاعر هؤلاء القوم أنهم تمكنوا أن يحموا بأرماحهم أنفسهم ويمنعوهم من الانتصار عليهم. والمؤكد أن الدهر لا =

- وَنَحْفَظُ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَنَتَّقِي
 عَلَيْهِنَّ أَنْ يَلْقَيْنَ يَوْمًا مَخَازِيَا ^(١)
 أَبِينَا أَبِينَا أَنْ تَضِبَّ لِثَاتُكُمْ
 عَلَى مُرَشِّقَاتٍ كَالطَّبَّاءِ عَوَاطِيَا ^(٢)
 وَقُلْتُ لِمَنْ قَدْ أَخْطَرَ الْمَوْتَ نَفْسَهُ
 : أَلَا مَنْ لِأَمْرِ حَارِمٍ قَدْ بَدَا لِيَا ^(٣)
 وَقُلْتُ لَهُمْ : رُدُّوا الْمُغِيرَةَ عَنْ هَوَى
 سَوَابِقِهَا وَأَقْبِلُوهَا التَّوَاصِيَا ^(٤)
 وَإِنَّا نَقُودُ الْخَيْلَ تَحْكِي رُؤُوسَهَا
 رُؤُوسَ نِسَاءٍ لَا يَجِدْنَ فَوَالِيَا ^(٥)

- = يبقى على أحد، فمآل البشر إلى الفناء، ويبقى الذكر الحسن خالداً.
 (١) هذا البيت يشك به الرواة. لحمل السلاح غاية نبيلة تحفظ عورات نساءهم وتقيهم غدرات الزمن والخزي والعار.
 (٢) تضب لثاتكم: يقصد أن لثاتهم تتحلّب لشدة حرصهم على التملك. المرشقات: الخيل والإبل ذوات الأعناق الطويلة. العواطي، مفردها عاطية: الظبية من طبعها مدّ عنقها لتتناول ورق الشجر. كانت ردة بني عبس الرافض بأن يطمع هؤلاء بما لدى بني عبس من ثروة من خيول وجمال، وألا تتحلّب لثاتهم لتملّك تلك الأموال.
 (٣)، (٤) أخطر الموت نفسه، يقصد أن يعرض المرء نفسه للموت وعزم عليه. يحكي الشاعر ما دار بين بني قومه من حوار للخلاص من هزيمة محتمة، فبعضهم رأى المغامرة بالحياة دون تفكير بعواقب ذلك، وهنا ينبري الشاعر مبدئياً رأي مجرّب خبر الحروب أن يردّ المنافحون عن قومهم بمواجهة الخيل المغيرة ويكبدوها خسائر فادحة، فيرتدّ الباقون منهم على أعقابهم، وأن عليهم أن يوجهوا ضرباتهم إلى نواصي خيول أعدائهم.
 (٥) الفوالي، واحدتهم فالية: الماشطة، يفخر الشاعر بأن بني عبس يمتطون =

فَمَا وَجَدُونَا بِالْفَرْوَقِ أَشَابَةً
وَلَا كُشْفًا وَلَا دُعَيْنَا مَوَالِيَا ^(١)
تَعَالُوا إِلَى مَا تَعْلُمُونَ فَإِنِّي
أَرَى الدَّهْرَ لَا يُنْجِي مِنَ الْمَوْتِ نَاجِيَا ^(٢)

تقول ابنة العبسي

قال في يوم غدِير قلهي، وقد أمرته عرسه بالهروب:

[الطويل]

تَقُولُ ابْنَةُ الْعَبْسِيِّ: قَرَّبَ جَمَالَنَا
وَأَفْرَاسَنَا ثُمَّ أَنْجُ إِنْ كُنْتَ نَاجِيَا
فَقُلْتُ لَهَا: مَنْ يَغْنَمُ الْيَوْمَ نَفْسَهُ
وَيَنْظُرُ غَدًا يَلْقَى الَّذِي كَانَ لَاقِيَا

= خيولهم دون عناية بها؛ وذلك لمباغطة أعدائهم، فتبدو رؤوسها كرؤوس نساء لم يسرخن شعورهن.

(١) الفروق: وإد باليمامة والبحرين حيث جرت المعركة. الأشابة: الأخلاط من قبائل شتى. الكُشف: الذين ينهزمون ويفرون. يقول الشاعر: لقد وجدنا الأعداء غير ما توقعوا في الفروق؛ فنحن أبناء قبيلة واحدة، ولسنا من أقوام شتى مما يبذر الشقاق وروح الانهزام بينهم، فيفرون وتنزل بهم الهزيمة، ولكننا يدٌ واحدة وقلب واحد، وليس فينا من يقبل بالفرار والهزيمة.

(٢) يطلب الشاعر من قومه الإقبال على شيء يعلمونه يقيناً أن الموت سبيل لحياة كريمة، والدهر عون للمرء إن عمل في سبيل حياة أفضل، فلا سبيل ولا فرار من الموت المحتم؛ وفي هذه الحالة فقط يكون النصر.